المحاضرة العشرون

# روح المتنبي (١)

## - ١٢ -

لكل شاعر روح تفيض على جنبات شعره ، ومهما حاول ان يخفي هذه الروح فلا بدَّ لها من الظهور ، لكل شاعر روح ، هذا تعبس الدنيا في نظره فنرى في أضعاف شعره ظلمة الدنيا وعبوسها ، وهذا تبتسم الايام في وجهه فنجد في اثناء شعره ضياء الايام وابتسامها ، هذا يسترسل الى جد الحياة فلا نقع في شعره على شيء من هزلها ، وهذا ينبسط الى هزل العيش فلا نشعر في فيض قريحته بشيء من جده ، شاعر ضياء الامل مستفيض في شعره ، وشاعر ظلمة اليأس شائعة في قريضه ، لكل شاعر روح ، ما هي روح المتنبيّ ، ما هي هذه الوثبات التي وثبها في كل مذهب من مذاهب شعره ، في نسيبه ورثائه ، وفي أماديحه واهاجيه ، ماهي هذه النزعات التي نزعها في فقره وغناه ، وفي صبوته القلقة ، واكتهاله المضطرب .

نشعر ونحن نقرأ شعر ابي الطيب بان الحياة مظلمة الجوانب في عينيه ، كامدة الألوان في نظره ، فلسنا نجد في هذا الشعر اثراً من آثار بشاشة الدنيا وابتسام الزمان ، ان في روح المتنبيّ شيئاً من الانقباض ، ليس معنى هذا ان ابا الطيب لم يعرف قيمة الحياة ، ولم يقدرها حق قدرها ، فان الذي يقول :

أنعم ولذّ فللأمور اواخر ... ابداً اذا كانت لهن أوائل
مادمتَ من أرب الحسان فانما ... روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمرّ كأنها ... قُبَل يُزوّدها حبيب راحل

لعارف بموارد الحياة ومصادرها ، وبمداخلها ومخارجها .

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وان الذي يقول :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهى من ان يُملّ واحلى
واذا الشيخ قال اف فما ملّ حياةً وانما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولّى

لا يغفل عن اسرار انبساط النفس وانشراح الصدر ، وربما أحاط من هذه الاسرار بما لم يحط به أعرف الناس بمقدار الحياة ، وما هذه الأسرار الا الصحة والا الشباب ، واذا المرء لم يرفل من الصحة في برد قشيب ، ولم يتفيأ من الشباب وارف الظلال ، لم يجد للحياة لذّة ، نعم لم يجهل ابو الطيب قيمة الحياة وهو حريص عليها لانها شهية :

المرء بأمل والحياة شهية والشيب أوقر والشبيبة انزق

ولقد بكى على شبابه :

ولقد بكيت على الشباب ولمّتي مسودّة ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق

وفي هذه الدموع دليل على حبه الحياة ، وحرصه عليها ، وربما اشتدّ هذا الحرص حتى أخرجه في صباه من شيء من الشجاعة ، وألحمه في شيء من ذل الجبن في بعض الحالات ، فمن قوله في مدح الحسين بن اسحق التنوخي وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء الى ابي الطيب :

وما أربت على العشرين سني فكيف مللت من طول البقاء

ومنه قوله للوالي وهو في الاعتقال :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجليّ ثقل الحديد

كل هذا حجة على رغبة المتنبي في الحياة ، وتمسكه بها . ومع هذا فاننا لانجد في شعره اثراً لضياء الحياة وبشاشتها ، فكأن الرجل قد حرم حظه من لذتها ، او كأنه لم يكن له من نضارة شبابه وكمال صحته آلة يستعين بها على ذوق هذه اللذّة ، أفكان المتنبي يشتكي صحته ، فكثيراً ماأشار في شعره الى نحوله ، ومن هذه الاشارات :

روح تردّد في مثل الخيال اذا اطارت الريح عنه الثوب لم يبن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ومنها :

جمعت بين جسم احمد والسـ ـقم وبين الجفون والتسهيد

ومنها :

ولا وقفت بجسم مسّيَ ثالثـةٍ ذي أرسم دُرُسٍ في الارسم الدرس

أفكان مصاباً بشيء من الماليخوليا التي نجد آثارها في شعره ، فقد اسودت الدنيا في عينيه ، وقلّ سروره فيها ، وضاع عمره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمثالها من سالف الأمم

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم واتينساه على الهرم

واستخفّ بامر الحياة فلم يبال أطال العمر ام قصر :

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عيشه مثل ذاهب

وافضى به هذا الاستخفاف الى شيء من القسوة في مواطن البكاء :

أنبكي لموتا على غير رغبة نفوت من الدنيا ولا موهب جزل

وما الدهر اهل ان تؤمّل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل

نعم لم ينظر الى الدنيا من وجهها الجذل ، وانما نظر اليها من أفقها الكئيب ، ففاض شعره كآبة ، فهو يتصور الموت في كل حالة من حالاته ، في صحته واعتلاله :

وان اسلم فما ابقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

ومن كان هذا نظره في الدنيا فلا عجب اذا هاجت به الماليخوليا في بعض الاحيان فطلب الموت ، لان الموت هو الذي يشفيه مما يكابده من الم النفس ، وايّ الم اشدّ من رؤية الحساد ، ولا سيما اذا كان المحسود مثل ابي الطيب ، يعادونه على فضله الذي يستوجب محبته ، وينام عنهم ولا ينامون عنه :

أعادي على مايوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فيّ تجول

لا عجب اذا طلب المتنبيّ الموت ، ولقد طلبه لانه فتش عن صديق مخلص له فلم يجده ، وعن عدوٍ مداجٍ فأعياه ، فالحياة التي ليس فيها صديق مخلص ولا عدو مداج لا يكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على رجل مثل المتنبيء ان يطلب فيها الموت ، وهو من هو في شدة احساسه واهتزاز اعصابه وسرعة حركة نفسه :

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا او عدواً مداجيا

لا عجب اذا كانت المنايا من اماني المتنبيء لانه بين ظهراني رجال ودهم خداع ودينهم نفاق :

فلم ار ودّهم الا خداعا ولم ار دينهم الا نفاقا

ان رجلاً هذا هو نظره في الحياة ، ان رجلاً يستوي عنده قصر الحياة وطولها لانه يرى ان الحياة مصيرها الى الزوال لبعيد عن التفرغ لمغالبة الايام ، والسعي في الحصول على شيء من عظمة الدنيا ، سواء أكانت هذه العظمة في المال ام في الجاه ، نعم ان رجلاً هذا مذهبه من عادته ان يقضي في ظلال الهدوء وراحة البال هذه الايام القليلة التي يعيشها مستهزئاً بكل عظمة ، ساخراً من كل جاه ، لان الحياة في نظره احقر من ان يزاحم عليها ، ان رجلاً من امانيه المنايا لانه لم ير صديقاً مخلصاً له ولا شبه صديق ، ليغلب اليأس عادةً على قلبه ، فلا يضرب في مناكب الارض ابتغاءً لشيء من عظمة الدنيا ، ولكن المتنبيء بعيد عن هذا كله ، وهذا موطن من مواطن تناقضه في أخلاقه فقد كانت حياته تجمع بين الفأل والشؤم ، وتؤلف بين اليأس والرجاء ، وانه ليرى ظلمة الدنيا الى جانبه اذ يسعى الى ضيائها من جانب آخر ، وانه ليهزأ بطول الحياة وقصرها اذ يستنفد وسعه في الوصول الى شيء من ظواهر العظمة في هذه الحياة ، ما اقلق ابا الطيب ، ما اشد اضطرابه :

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

فكان يغضب على الحياة و يرضى عنها ، بحسب حالات نفسه ، وعلى قدر هياج اعصابه وهدوئها ، لقد غضب على الحياة من الناحية التي رآها مسوّدة ، ولكنه سعى في الوصول الى الذي خالج قلبه في هذه الحياة سعياً تقصّر دونه سوابق الاقدام ، وربما كان يخط في بعض سعيه الى طبقات المستعطين فمرة كان استعطاؤه صريحاً :

أمطر عليّ سحاب جودك ثرّة وانظر اليّ برحمة لا أغرق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومرة كان تعريضاً :

فما بفقير شـام برقك فاقة ولا في بلاد انت صيبها محل

وحيناً كان الاستعطاء مشتملاً على شيء من التفنن :

فان تقل : ها فعادات عرفت بها او : لا ، فانك لا يسخو بلا فاكا

نعم سعى في هذا كله ما كلّت عزائمه ولا فترت همه ولا وجد اليأس الى قلبه سبيلاً ، فقد عمل لدنياه كأنه يعيش ابداً ، وكان مذهبه في عمله : الدنيا لمن غلب ، حاول ان يغلب فما قصّر سخر من كل نائبة نابته ، وذلل كل عقبة اعترضته ، فلو تجسم العزم لكان ابو الطيب جسمه ، ولو تصوّر العمل لكان صورته الناطقة ، ان شعره ليفيض رجولية ، ان شعره انما هو شعر الرجل القوي على متاعب الحياة ، يتطاول له عدوه المبين فلا يخضد من شوكته ، ولا يضعف من عزمه ، واذا نبا به مكان انتجع مكاناً غيره ، سواء أكان منتجعه بعيداً ام كان قريباً ، ما اعظم المتنبيّ في هذا الجلد على التمرس بالآفات ، والمطاعنة للايام فيكاد يكون المثل الأعلى في النزاع والمغالبة ، اوتي من العزم ما صغّر اليه كل عظيم من عظائم الدنيا ، حتى نشأت له من هذا كله قوة منيعة استعان بها كل حياته ، يحبس الرجل في سبيل امر من الامور ، فيخرج من حبسه ، ويضرب في الارض لا مطية له الا النعل والاخف ، فيمدح من يمدح ، ومن ممدوحيه من لا يعطيه على قصائده الا ديناراً ، فيصبر ولا يقطع امله من الحياة ، ويتصل بسيف الدولة فيغرق في نعمه ، فيكيد له من يكيد ، ويحسدونه ، فيترك سيف الدولة و يرجع الى ديدنه في السعي والجهد ، فيأتيه وعد السودان فينجو من شرهم ، ويقصد حضرة كافور الاخشيدي فلا يكرمه اكرام سيف الدولة ، ولا يسمح له بالجلوس في مجلسه ، و يبث عليه العيون والأرصاد ، ويضمر قتله ، فينفلت منه و يعود الى سعيه ، فيتآمر عليه عبيده فيجز على احدهم ، و يغلب على امرهم ، و يعود الى العراق فيثور عليه شعراء العراق ، فيهرب من بغداد و يصل الى بلاد فارس ، ثم يستأذن عضد الدولة في العودة الى وطنه فيحذرونه من الموت فلا يعبأ بالموت و يهجم عليه فيموت . اظن ان في هذه الامور كلها سلسلة حياة تكاد تكون منقطعة النظير في الصبر على الشدائد ، والاستعداد لمطاعنة الدهر ، واظن ان الرجال الذين يصبرون بعد الصدمة الاولى من صدمات الحياة قليل عددهم ، ان كثيراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الناس تضعف عزائمهم في اول ضربة من ضربات الزمان ، فالمتنبيء من هؤلاء الرجال الذين مارسوا الايام ومارستهم ، وصارعوها وصارعتهم ، فما استسلموا ولا انقادوا ، بباغتهم الدهر من ناحية فيستعدون له من ناحية ثانية حتى تمل الايام طوال نزالهم ، فتلقي اليهم سلاحها وتنطوي دون عزائمهم ، فلو صوّر العراك والغلاب والمراس لكان المتنبيء صورة هذه الامور كلها ، فكأنه جعل مذهبه في سيرته ما جرى على لسانه في بعض شعره :

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

هنا تظهر رجولية المتنبيء ، هنا يكون ابوالطيب القدوة لمن يريد ان يقتدي به من الاعاظم الذين لايكاد يظهر فضلهم حتى تنضافر عليهم المكايد ، وتتواطأ عليهم الغوائل فاذا جبنوا واستسلموا اطفأ الحساد من نورهم ، واذا شجعوا ومضوا في سبيلهم ملّ هؤلاء الحساد حسن ثباتهم وماتوا من سخرية الذين يحسدونهم فلايجدون الى اطفاء النور سبيلا .

في شعر ابي الطيب رجولية تفيض في كل جنبة من جنبات هذا الشعر المنيم ، وما هذه الرجولية الا صورة روحه ، ولقد ابت هذا الروح الا الظهور في كل مذهب من مذاهب شعره ، فسواء عليه أمدح أم هجا ، وسواء عليه أتغزل أم بكى ، ان روحه لتغلب عليه في اماديحه واهاجيه ، وفي غزله وبكائه . ان هذه الروح ابت الا الوضوح في كل حال من حالاته ، وفي كل طور من اطواره ، سواء أكان فقيراً أم كان غنياً . انكم لتجدونه يبكي شقوته ويضجر من رقة حاله وخشونة عيشه ، ومع هذا فان روحه لا تغفل عن التغني بالتكرم ، وعن التنديد بالذل .

فبعد ان يقول :

الى اي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

لا يلبث ان يقول :

والا تمت تحت السيوف مكرّما تمت وتقاس الذُلّ غير مكرّم

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

وما كان المتنبيء الا صادقاً في قوله ، ولقد امتلأ شعره من هذه النزعات السامية والوثبات الكريمة فماخلت قصيدة من قصائده من هذه الروح العالية ، وبينا نجده يقول :



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضاق صدري وطال في طلب الر ـ زق قيـامي وقلّ عنه قعودي

اذ نجده يقول :

عش عزيزاً او مت وانت كريم بين طعن القنـا وخفق البنود
فاطلب العزّ في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود

فالعز والمجد والعلياء وكرم النفس الفاظ جرت على لسان ابي الطيب المتنبيء في كل شعره فكانت تفصح عن حقائق روحه وبواطن نفسه ، ولقد ادّى به تغنيه بهذا العز وبهذا المجد وبهـذه العلياء الى مواطن الموت ، مثّلوا له الموت وحذّروه منه فما حذره ولا نفاه هجم على الموت خوفاً من ان يقال فيه انه جبان ، فما أبعد اباالطيب عن احتمال الأذى ورؤية جانيه :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام
ذلّ من يغبط الذليـل بعيش ربّ عيش أخفّ منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليـه ما لجرح بميت ايلام

ما أبعد اباالطيب عن احتمال الأذى ، لقد غرق في نعيم سيف الدولة وفي مكارمه ومع هذا كله لما عبث به سيف الدولة واحسّ المتنبيء بالانقباض عنه ما لبث ان عاف هذا النعيم وهذه المكارم :

وما منزل اللذّات عندي بمنزل اذا لم أبجّل عنده وأكرّم
سجيّة نفس ما تزال مليحـة من الضيم مرميّاً بها كل مخرم

نعم يأبى ابوالطيب الا ان يُبجّل والاّ ان يكرّم واذا سكت في حضرة كافور عن شيء من هذا التبجيل والتكريم فما معنى هذا ان الرجل هانت عليه نفسه ، وانما طمع وهو في حضرة كافور في شيء من الملك شغل باله طول حياته ، فصانع كافوراً ارادة الوصول الى هذه الولاية التي أملها ولما احسّ بالشر و بالاذى ولّى عن كافور .

أبت هذه الروح العالية الا ان تظهر على شعره في كل مذهب من مذاهب هـذا الشعر ، لقد ظهرت في أماديحه ، فاذا مدح أعرب عن روحه قبل ان يصوّر روح الممدوح وربما جعل للافصاح عن روحه في اماديحه النصيب الاوفى :

ولا تحسبن المجـد زقاً وقينـة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتضرب اعناق الملوك وان ترى  لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما  تداول سمع المرء انمله العشر

نعم لم يغفل عن اظهار روحه في اماديحه حتى في اماديحه في سيف الدولة :

وانا لنلقى الحادثات بانفس  كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا  وتسلم اعراض لنا وعقول

ولقد ظهرت روحه في مراثيه اي في المواطن التي يذهل فيها الانسان عن كل عظمه وعن كل عز ، ففي رثائه لجدته وقلبه ملتهب ، ودمعه منسكب لم يغفل عن روحه :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني  ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

روحه غالبة عليه فأنتم تعلمون مقدار محبته لجدته ومقدار اسفه على وفاتها ومع هذا فلم تنسه وفاتها روحه فكأن في باطنه شيئاً يخزه حتى يظهر وما هذا الشيء الذي يحركه الا روحه ، وكذلك حاله في غزله :

وقد طرقت فتاة الحي مرتديا  بصاحب غير عزهاة ولا غزل
لا اكسب الذكر الا من مضاربه  أو من سنان أصم الكعب معتدل

وكذلك شأنه في أهاجيه :

ويلمها خطة وبلم فابلمها  لمثلها خلق المهرية القود
وعندها لذ طعم الموت شاربه  ان المنية عند الذل قندبد

ما اعظم روح ابي الطيب ! ما اظهرها على شعره !

دمشق : ٣ ايار سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net